د. شمعون بلاص*

أن تكون كاتبا (بالعبرية) من اصل عراقي

الطائر المهاجر والاديب

في مطلع أيار ٢٠٠٢، شارك الاديبان الياس خوري (بيروت) وشمعون بلاص (تل ابيب)، في ندوة ثقافية فكرية في جامعة نيويورك، تمحورت في «حوار الثقافات»، حضرتها مجموعة كبيرة من المثقفين والادباء العرب والاميركان. هنا، محاضرة بلاص في الندوة.

شبّه الاديب الفرنسي سيوران Cioran حال الكاتب الذي يضطر للانتقال الى الكتابة بلغة اخرى، بحال الطائر المهاجر، الذي يفرض عليه تعلم الجغرافيا. توضح لنا هذه المقارنة، على ما تنطوي عليه من مبالغة، مدى الجهد النفسي المطلوب من كاتب كهذا، وليس كسيوران نفسه من يعرف ذلك، عندما انتقل للكتابة بالفرنسية، بعد ان هاجر الى فرنسا من وطنه الاول، رومانيا. تجتمع لدى كاتب كهذا هويتان لا تنفصلان أبداً: الهوية المولدة والهوية المكتسبة، وبطبيعة الحال لا بد لهذه الازدواجية اللغوية – الثقافية ان تنعكس في انتاجه. عمليا، يبقى كاتب كهذا بمثابة مغترب بهذا القدر او ذاك، ومختلف عن نظرائه الادباء في البلد الذي نزح اليه.

ساتحدث عن نفسي. لم اعرف العبرية عندما نزحت الى اسرائيل، ولم يخطر ببالي في السنوات الاولى أنني ساكتب ذات مرة بهذه اللغة. آمنت انذاك ان الاديب لا يستطيع الابداع الا بلغته الطبيعية. كتبت العربية، وفي اسرائيل وجدت في مجلة «الجديد» الادبية الصادرة عن الحزب الشيوعي منبرا لنشر القصص والمقالات. وحتى بعد ان اصبحت العبرية لغتي اليومية، واشتغلت في صحيفة الحزب «صوت الشعب» («كول هعام» بالعبرية) كمراسل للشؤون العربية، لم اجرؤ على كتابة نص

* كاتب ومحاضر في قسم اللغة العربية بجامعة حيفا.

ادبي بالعبرية، وعندما خططت كتابة رواية عن حياة المهاجرين من العراق كتبتها بالعربية. لم تصدر هذه الرواية، إذ في تلك السنوات لم يكن في اسرائيل سوى دارين للنشر بالعربية، الاولى تابعة لحزب السلطة لم اتوجه اليها، والثانية للحزب الشيوعي لم يكن بمقدورها نشر الروايات. بقيت المخطوطة في الجارور، وبدأت افكر في مشواري كأديب. فقط بعد انقضاء عشر سنوات على هجرتي لم أجد مناصا من القيام بالخطوة المطلوبة، والتوجه لترسيخ المامي باللغة العبرية. لم تكن هذه التجربة سهلة البتة، بل لا ابالغ إن قلت: مؤلمة ومحبطة، فقد اضطررت لتنويم العربية التي في داخلي، ونسيانها. استمر ذلك أكثر من سنتين، انتهيت في ختامهما من كتابة صيغة جديدة للرواية، صدرت في سنة ١٩٦٤.

اسرائيل بلد هجرة، وفي تجربة انتقالي من لغة لأخرى، لم أكن حالة استثنائية بين الادباء. لكنني قدمت من العراق، من عالم اعتبرته المؤسسة السياسية والثقافية ليس مجرد عالم العدو، بل عالما متخلفا ليس فيه من قيم يمكن الاستفادة منها. حركني هذا الراي المسبق، كما حرك مجموعة من الاصدقاء من مهاجري العراق، لبذل ما في امكانياتنا المتواضعة لتقديم صورة أخرى عن حياة الثقافة العربية. في الخمسينيات الاولى من القرن الماضي أقمنا في تل ابيب «ندوة انصار الادب العربي»، اجرينا في نطاقها لقاءات بين أدباء عبريين وعرب، وقدمنا محاضرات في الادب العربي كما ترجمنا منه للعبرية. هنا لا بد لي من أن اضيف أن موقف المؤسسة المتعالي تجاه العالم العربي، انعكس أيضا في نظرته التسلطية تجاه المهاجرين من هذا العالم، الذين اطلق عليهم «الطوائف الشرقية»، وهي تسمية لا تفتقد نبرة الاستخفاف، أي: انهم خليط من الناس لا بد من اعادة تربيته وتثقيفه.

في هذا الموضوع كتبت مقالا استفز عدداً ليس قليلاً من الناس. كان ذلك في سنة ١٩٦٥، بعد صدور روايتي العبرية الاولى بفترة قصيرة، عندما طلب مني محرر أحد أهم المجلات العبرية (مجلة «اموت») كتابة مقال أعرب فيه عن رأيي في استيعاب المهاجرين من بلدان الشرق. قلت في مقالي: إن المؤسسة تعامل

مهاجرون يهود.

المهاجرين من البلاد العربية كمعاملة الدول الكولونيالية لشعوب مستعمراتها. انها تتجاهل ثقافتهم، وتحاول اعادة تكييفهم حسب مفاهيمها. قلت أيضا إنه فقط بالتعرف على العالم العربي واحترام ثقافته وتفهم اوضاعه، يمكن لاسرائيل ضمان وجودها في المنطقة. أثار المقال غضب المحرر، الذي شن في نفس العدد هجوماً عنيفاً عليّ كمن يتنكر للجهود المبذولة في استيعاب هؤلاء المهاجرين. بل إنه طلب ردود فعل من أربعة ادباء لتفنيد مزاعمي. من المؤكد ان هذا الحدث في تلك السنوات البعيدة لن يفاجيء أحداً اليوم. لم تحد المؤسسة السياسية قيد أنملة عن سياستها، وبعد حرب الايام الستة وتعاظم قوى اليمين، نجحت (المؤسسة) بربط قسم كبير من المهاجرين من البلاد العربية بسياستها الاحتلالية. وفي ايامنا هذه، نرى قادة اسرائيل وعسكرييها يدوسون بفظاظة تطلعات الشعب الفلسطيني الى التحرر من

مهاجرون يهود من العراق (١٩٥١)، لدى وصولهم البلاد.

الاحتلال وحياة اللجوء. بل انهم يتجاهلون مقترحات السلام وانهاء الصراع الصادرة عن قادة العالم العربي.

والآن بضع كلمات عن انتاجي الادبي. تشدني تجربتي كمهاجر نحو اشخاص يعيشون على التخوم الفاصلة بين عالمين، وبين هويتين. صورة الآخر، المختلف عن المجموع رغم جهوده لكي يكون مقبولاً بداخله، تعاود الظهور بصيغ مختلفة في كتابتي. هكذا الامر في رواية «غرفة مغلقة»، حيث البطل فيها فلسطيني من سكان اسرائيل، طالب جامعي للهندسة المعمارية، وناشط في أوساط اليسار، ومع ذلك يشعر بانه مختلف عن أصدقائه اليهود، ولا ينتمي الى عالمهم انتماء كاملاً، وعندما يهاجر الى اوروبا ويقيم صلات بمغتربين فلسطينيين، يجد نفسه مجدداً مختلفاً عنهم ومتميزاً. وهكذا الامر في رواية «سولو»، التي تقدم شخصية كاتب مسرحي يهودي مصري من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، طرد من وطنه بسبب نشاطه السياسي ضد الانكليز، فعاش في باريس كمغترب الى يوم مماته. كذلك هو الحال في رواية «شتاء أخير» التي تدور احداثها في باريس، وابطالها مغتربون من اسرائيل والعالم العربي، تتوسطهم شخصية شيوعي مصري قتل سنة ١٩٧٨. وهكذا هو الامر بشكل خاص في رواية «وهو آخر»، التي تحكي قصة مثقف عراقي يهودي اعتنق الاسلام في ثلاثينيات القرن الماضي، بدافع من الايمان بانها الطريق الافضل للاندماج التام بالشعب. وقد أصدر كتابا عن ذلك، اعرب فيه عن اعتقاده بأن على الاقليات الدينية في العالم العربي، اليهود والمسلمين، السير في هذا الطريق للحفاظ على وحدة الشعب في بلادهم. ومع ان هذا الشخص حظي بالتقدير والتأييد، لكنه بقي بنظر بيئته، وبنظره هو أيضا، مختلفاً ومميزاً. نماذج كهذه موجودة في روايات وقصص أخرى لي، لكني لن اتعبكم بذكرها بالتفصيل.

لو عدنا الى مقولة سيوران التي استهللت بها كلامي، فمن الواضح لنا جميعا أن الانسان، خلافاً للطائر المهاجر، قادر على تعلم الجغرافيا، بمعنى أنه قادر في مرحلة متقدمة من العمر على تعلم قواعد وتراكيب لغة جديدة والالمام بها تماما. السؤال هو: هل كتابته باللغة الجديدة، الموجهة قبل كل شيء لجمهور الناطقين بتلك اللغة، قد تختلف عما كان في امكانه أن يكتب لو واصل الكتابة بلغته الام؟ بكلمات أخرى: ألا تفرض أداة التعبير الجديدة زاوية رؤية مختلفة، وربما مضامين جديدة؟ أسئلة من هذا النوع اطرحها احيانا على نفسي. على كل الاحوال، ثمت حقيقة في المقولة: إن الظروف توجه خطوات المرء، وهي، كما يتضح، تصوغ عالم الأديب أيضا.

(تل ابيب)